

العنوان:	التمرد الرومانسي في شعر عرار
المصدر:	المجلة الثقافية
الناشر:	الجامعة الأردنية
المؤلف الرئيسي:	حداد، نبيل يوسف
المجلد/العدد:	ع 47
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1999
الشهر:	يوليو - جمادي الثانية
الصفحات:	80 - 84
رقم MD:	143057
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الثورة الفرنسية ، الشعر العربي، الشعراء العرب ، التل ، مصطفى وهبي، 1899 - 1949، الشعراء الأردنيون، الصور الشعرية ، العالم العربي ، القضية الفلسطينية ، الشعر الرومانسي ، نقد الشعر ، التحليل الأدبي ، الإبداع الفني ، الدواوين و القصائد ، التراجم
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/143057

التمرد الرومانسي

في شعر عرار

د. نبيل حداد
جامعة اليرموك - الأردن

يقول عرار:

هات اسقني «قعوار» ليس يهمني قول الوشاة: عرار سكرانان

التمرد الاجتماعي في شعر عرار تاركين مناقشة خروجه على قواعد اللغة في بعض الأبيات الى موضع آخر تال .

لقد اتخذت الرومانسية من الشعر وسيلة للتعبير عن الذات. وكان هذا أمراً طبيعياً بعد الثورة الفرنسية التي حررت الفرد واعترفت للإنسان بحقوقه كما يقول مندور. وليس من المبالغة في شيء أن نزعّم بأن منطقة الشرق العربي قد عاشت خلال الفترة من الحرب العالمية الأولى وما تبعها حالة مشابهة - من هذه الناحية - لما كان الوضع عليه في أوروبا خلال النصف الأول من القرن الماضي، وذلك حين تكشف غدر الحلفاء عن اتفاقية سايكس بيكو وتكرهم الفاضح لتعهداتهم للثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف

إن الصورة الشعرية في البيت السابق، إن استطعنا تمثيلها بوسائل العقل العادية، تنطوي على عنصر التمرد مزدوج الدلالة؛ فالخمرة ضرورة حيوية تجب كل ما يلحقها من دعاو. فليس مهما عند الشاعر أن يقول الناس عنه إنه «سكرانان» لا مجرد سكران واحد. وهذه صرخة تنطوي على تمرد سافر لما تواضع عليه المجتمع من نبذ السكران وازدراؤه. وينطوي البيت كذلك على تحدي المنطق الظاهر بعامه ومنطق اللغة بصفة خاصة. إن تصور السكران الواحد على أنه سكرانان أمر ليس متاحاً إلا لسكران- ويا لها من مفارقة. وعرار يتحدى منطق اللغة - حتى لا نقول قواعدها - حيث يميز تثنية خبر المفرد على النحو الذي جاء عليه عجز البيت، وسناقش فيما يلي صور

مواقف إيجابية في مقاومة الواقع سواء بالفعل أو بالفن، والمعول عليه في هذا المجال هو الفن بطبيعة الحال. وعلى الرغم من ميل الرومانسيين بصفة عامة للانزواء، فإن هذا الوضع يأتي عادة عقب تجارب مريرة ومواجهات شرسة مع من يرونهم خصوم الحياة والتقدم، ومن ثم يأتي التمرد والانكفاء على الذات كتجسيد للاحباط. وفي شعر عرار كثير من نماذج الانسحاب التي تعبر عن خيبة أمله وتراجعته في تجارب العمل العام، أو في السياسة إن أردنا كلمة أدق. ولا يعني هذا أن الشاعر في مواقفه هذه كان على صواب على طول الخط، وأن السياسة على خطأ على طول الخط كذلك، فالأمر يعتمد على جوهر كل منهما، وهذا بدوره يثير قضية المسؤولية عند الفنان. إن أحداً (كما يرى عيسى الناعوري) لم يزعم أن عراراً قد قدم أية حلول نظرية لمشكلات الأردن السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولكن الشعراء في الغالب الأعم - لا يرون أنفسهم مصلحين ومسؤولين عن إصلاح الكون، ولكنهم إذ يشعرون بالألم لفساده واختلاله وزيفه، وينجحون في نقل هذا الشعور إلى الآخرين، يكونون قد بذروا بذور التمرد عليه. وهم إذ يمشون يتغنون بمجموعة القيم الإنسانية، كالصدق والعدالة والحرية والكرامة، يكونون قد حفروا في الضمائر أنبل ما يناضل الإنسان من أجل تحقيقه (اسماعيل، ١٩٨١، ص ٥٧).

ومن هنا يختلف دور الشاعر عن دور السياسي في حين يتطابق دور هذا مع دور الناثر؛ فالقيمة الأخلاقية للشعر تتمثل في أنه رافض دائماً لما هو كائن، مستشرف دائماً لما ينبغي أن يكون، وفي حين تقبل السياسة كل شيء، كل لحظة.... فإن الشعر يعيد النظر كل لحظة في كل شيء. ويرى عز الدين إسماعيل أنه في الوقت الذي يفترق فيه طريقا الشعر

الحسين بن علي بقيام الدولة العربية الواحدة المستقلة في المنطقة الآسيوية من الوطن العربي، إضافة إلى جرح فلسطين الذي ما زال ينزف منذ ذلك الحين. وقد انطوى هذا الوضع على إحباط شديد وبخاصة للمثقفين وكان في طليعتهم الأدباء، والشعراء، فانكفأ الكثيرون منهم على الذات يجترّون ألأمهم الموءودة في آهات شعرية يسيطر عليها التشاؤم واليأس من واقعهم الخاص والعام، وإن لم يخل شعر الرومانسيين من جانب تفاؤل في غد مشرق. ولقد عبر عرار بصدق عن مرارة واقعه حين رأى في تمزقه النفسي معادلاً لتمزق أمته، ورأى في شعره أشلاء وجدانية تنعكس فيها أحوال وطنه الكبير، ولكن الأمل لا يفارقه في مستقبل أكثر إشراقاً:

قالوا: لشعرك عشاق بودهم

أن يجمعوا بعضه في شبه ديوان
فقلت شعري أشلاء ممزقة

كأنها عمري في كل ميدان
ويوم يأزف معياد النشور وما

يقضي به البعث من سر وإعلان
لسوف يسمع حتى الصم من غرري

آيات تلفظها أفواه خرسان
وهكذا نرى أن مصير الإنسان عند عرار الرومانسي

ليس قائماً إلى درجة اليأس المطبق «إن هذه الفلسفة الرومانسية المتشائمة تترك بصيصاً من الأمل، فنرى أنه يجد العزاء في إيمانه في تقدم الإنسانية، وأنه يمكنه ككاتب أن يعمل من أجل غد مشرق. فليعمل إذن بجد وحماس، حتى وإن لم يجد التقدير في حياته ومن مجتمعه، فالأجيال القادمة سوف تعترف بفضلها (فريد، ١٩٧٧، ص ٣٩).

ولم تقتصر ردة الفعل عند الرومانسيين إزاء واقع كهذا على الانكفاء على الذات، بل شمل رفضهم

والسياسة يوحد الشعراء بين الشعر والثورة، ويضيف: إن الثورة والإبداع الفني عند البياتي (مثلاً) كلاهما «عبور من خلال الموت»، حيث الإنسان «يموت بقدر ما يولد، ويولد بقدر ما يموت». والثوري يخلق انسان المستقبل، والشاعر يخلق شعر المستقبل، لأنهما عندما يبدعان الواقع ويعيدان خلقه، لا يفعلان ذلك لكي يقعا في شركه، ويصبحا انعكاساً له في صورته الجديدة، بل لكي يتخطياه ويجاوزاه إلى المستقبل (إسماعيل، ١٩٨١، ص ٥٨).

وعلى أساس ما سبق نقول إن عراراً لم تكن تعوزه الأموال السياسية، لكنه، على الدوام، كان يصدم بقناعته الرومانسية التي يصدر عنها بوعي وإصرار، تلك القناعة التي ترى أن السياسة يجب أن تخدم التقدم الاجتماعي بشكل مباشر، وعلى هذا لا نجد في شعر عرار ما يدافع به عن الأوضاع العامة إلا ما كان يصدر عن قناعة، بل عن التزام. في حين تسود نبرة سخط تبلغ أحياناً مبلغ الثورة على كل ما لم يقبله أو يرضى عنه في الحياة العامة. وهذا يشي بوضوح بأن عراراً كان على وعي كامل بدور الشاعر وحدود مسؤوليته، كما أن شعره يشهد بأنه مارس دوره كشاعر مع السياسة ومع الثورة (بالمعنى العام لهذه الكلمة) على النحو المبين آنفاً.

لقد كانت لعرار تجربة في العمل السياسي، فقد احتل عدداً من المناصب الرفيعة في الدولة، وكان في معظم مراحل حياته أحد المقربين الموثوقين من الملك عبد الله. ولم يكن الملك يخل عليه بالفرص الكثيرة، لكن عراراً رأى الممارسة السياسية بمنظور الشاعر الذي لا يعترف بالأطر الشكلية والأنظمة الإدارية، ولم يكن يراعي الأعراف السياسية، بل إنه كان يجاهر بمجاوزة القوانين وتطبيق قوانينه الذاتية في المنازعات القضائية، مما جر عليه مشكلات كثيرة

أدت في نهاية الأمر إلى انسحابه الكلي من الحياة العامة. على أن عراراً مع ذاتيته الرومانسية، والذاتية عند عرار لم تكن - في الغالب - الدوران حول الذات، بل هي الوعي بإمكانات الذات وطاقاتها اللامتناهية، الوعي الحاد بدور هذه الذات نحو المجموع؛ ولكن ضمن رؤية هذه الذات وطرقها المتفردة.. مع هذا لم يكن يخلو من العنصر الأهم الذي يجعل السياسي سياسياً والثائر ثائراً، هذا العنصر هو الأكثرث بالهم العام، وهو الذي يجمع بين السياسي والثائر، لكن هذا العنصر هو الذي يفرق بينهما في نهاية المطاف، ومن هذا الافتراق يلتقي الشاعر مع الثائر في رحاب الإحساس الدائم بالهم العام. ومن هذا المنطلق جاء وصفهم للأدب الرومانسي على أنه أدب ثورة، فضيق الرومانسي بالمجتمع ثورة، وفي انتصافه للبائسين من تلك التنيود ثورة، وفي سخطه على الشرور ودأبه في البحث عن أسبابها الميتافيزيقية والتشريعية ثورة، وأخيراً في هدمه للمعوقين لحرية الفرد ثورة (هلال، ١٩٧٣، ص ١٤٧).

ولقد ظل عرار متمرداً متعالياً شأن النموذج المتكامل للرومانسي الذي - حسب تعبير غنيسي هلال - لا يندم ولا يريد توبة ولا تكفيراً لأخطائه، يتطلع إلى سعادة لا يظفر بها، ولكنه يحاول التخلص من ضيقه بإشهار حرب على المجتمع وتقاليد،ه، وبالأحتفاظ بكبريائه تجاه الناس والأحداث. لكنه كبرياء شيطاني، يشعر فيه المرء بحقد هدام، يدفع به إلى الاستهتار فيعترف بجرائمه ونقائصه مستخفاً (هلال، ١٩٧٣، ص ٧٠) يقول عرار:

ماذا على الناس من سكرى وعربديتي

ماذا على الناس من كفري وإيماني

ماذا على الناس من لهوي ومن عبثي

ماذا على الناس من جهلي وعرفاني

من حسن تدين كان يبلغ به مبلغ الزهاد في بعض الأحيان كما تدل عليه نماذج عديدة في شعره.

وفي شعر عرار ما يدل على أن نزعة التمرد في الناحية المشار إليها. لم تكن تقتصر على جانب الشعائر حسب، بل شملت صوراً من التمرد الميتافيزيقي رأى فيه الشاعر نفسه «ضحية القدر» كما دأب على ذلك كثيرون من أعلام الرومانسيين. وتطرح قصيدة «رثاء فؤاد» كثيراً من عناصر التمرد الميتافيزيقي هذا :

٠١ إن الإحساس بالفقد في هذه المرثية ينصرف في المقام الأول إلى ذات الشاعر وليس إلى ذات المرثي، وهذا ما تؤكد الأبيات الخمسة عشر الأولى على الأقل. على أننا نستطيع القول - من جهة أخرى - إن القصيدة لا تشمل على إحساس ثنائي يطرح بحدّة الفرق بين الشاعر والمرثي؛ ذلك أن هذا الأخير جزء من الكيان الشعوري للشاعر.

٠٢ وعلى أساس الملاحظة السابقة نستطيع أن نقول كذلك: إن القصيدة لا تخلو من عنصر وجودي يتجلى في تعامل الشاعر مع ما هو خارج الذات بوصفه جزءاً منها، كما يتجلى في النظرة إلى الموت على أنه شر الفواجع ونهاية كل شيء وخاتمة المطاف وهي نظرة ليس فيها إحساس قوي بالعزاء أو التقبل؛ فالشاعر لا يملك إلا وجوده، وجزء مهم من هذا الوجود هو فؤاد، وموت فؤاد موت له هو بدوره.

٣ - تجسد معاني القصيدة وطروحاتها إحساس الرومانسي بأن الحياة والموت يتضافران معاً لدحره (ولسون، ١٩٦٩، ص ٧٩) فالحياة نفسها قبض ربح، ورحلة ألم، وأقوى من يستطيع مجابقتها هو القانع فيها والزاهد بها، وهنا تقترب الحياة من الموت، وتتلامس معه، ويسيران متحالفين معاً على حساب الوجود الإنساني:

ماذا على الناس من فقري ومتربي
ماذا على الناس من ضني وإحساني

ماذا على الناس من حبي مكحلة
بين الخرابيش أهواها وتهواني
والرومانسي لفرط إحساسه المتعالي، لا يطلب العفو من أي جهة كانت. لأن في طلب العفو مذلة، ولأنه لم يصبر إلى ما صار إليه إلا لفساد المجتمع، أو لأنه ضحية القدر (هلال، ١٩٨٢، ص ٧٠) يقول عرار في منفاه بعد أن كان قد تاب ثم عن له العدول عن توبته :

وهمت فليس ما سميته الإيمان إيمانا
ولا هذا الذي قد خلته تقواك فحوانا
أنهذي بالسلو وقد غرام الغيد أضنانا
وقد للكأس تهفون نفس من يسلوه أحيانا
وذو الشوق القديم إذا تذكر عاد ولهانا
فدع عنك الهراء وقم نُدع للناس إعلانا
ألا من يشتري بالأحان والألحان تقوانا
بسعر: صلاة أسبوع ببعض الكأس ملأنا
وأجود صنف تسبيح بذكر الله ربانا
يباع جملة بالكمش لا يحتاج ميزانا
بنظرة شبهه حسنا تطلع في محيانا
ولعل الأبيات السابقة تطرح قضية مهمة فيما يتعلق بالجانب الديني عند عرار وإلى أي مدى تأثر هذا الجانب بنزعة التمرد الرومانسية لدى الشاعر!!

نشير أولاً إلى أن عراراً من أولئك الرومانسيين الذي كانوا يرون في الوجود آية على الخالق، وهو من أولئك الذين كلما جذبتهم مظاهر الجمال، ازداد يقينهم بعظمة البارئ عز وجل، ومع هذا لم يكن عرار يحفل بمظاهر التدين، والصورة التي رسمتها الروايات والكتابات حوله وكذلك شعره أمور تؤكد ضعف التزامه بالشعائر، لكن هذا لا يعني أن الشاعر كان يخلو

لكنها لا تبلغ مبلغ العدمية، إذ ليس في شعر عرار ما
يشير إلى توجه كهذا، بل هي شطحات تأمل وطأة
لحظة الفاجعة :

يا رب هل أنت القوي أم الردي
حتى ليهزأ بالقوي الباتع
ويميت من تحيي ليحياميت
لا خير فيه خلا القوام الفارع
أعطيته حق الحياة مديدة
وقصفت عمر اللوذعي البارع
ما كان شرك لو رحمت شبابه
وقبضت روح الأبله المتساع

فعلمت أن وراء ذلك تربية
غرثي تؤهل بالنزول اللامع
حتى القبور تجوع تلك عجيبة
ويح القوي من الضعيف الجائع
أفؤاد ما الدنيا؟ سراب ببيعة
وقح يقعتع في مفازة باقع
فاربع على ظمأ المنية إنها
وأبيك، أعنى من أغن مرابعي
٠٤ إن القصيدة حافلة بمعاني التحدي لمنطق
الحياة ومنطق الموت. وهي ترفض المنطقين رفضاً
يقود صاحبه إلى الانجراف وراء حالة من العيشية،

المراجع :

- «عشيات وادي اليباس» ديوان مصطفى وهبي التل (عرار)
جمع وتحقيق وتقديم: الدكتور زياد صالح الزعبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٨.
- إسماعيل، الدكتور عز الدين : «الشعر العربي المعاصر: قضاياها وظواهره الطبيعية والمعنوية»، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨.
- فريد : الدكتور أمال : «الرومانسية في الأدب الفرنسي»، دار المعارف بمصر، سلسلة كتابك، العدد (٦٣)، ١٩٧٧.
- فصول (مجلة قاهرية) : قضايا الشعر العربي، المجلد الأول، العدد الرابع، يوليو ١٩٨١.
- مندور، الدكتور محمد : «الأدب ومذاهبه»، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٤.
- هلال، الدكتور محمد غنيمي : «الرومانتيكية»، دار الثقافة، دار العودة، بيروت ١٩٧٣.
- ولسون، كولن : «اللامنتمي»، ترجمة أنيس ركي حسن، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٩.